

الدور الثاني

صلاح الدين في الشام

توفي نور الدين وترك ملكه إلى ولد الملك الصالح إسماعيل ، ولم يكن يبلغ من العمر حينذاك إلا الحادية عشرة ، فتولى رعايته وتدير ملكه شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم ، فأخذ الأمراء النورية في الشام يتنافسون ، كل منهم يعمل على إضعاف الآخرين والأيقاع بهم ، والامير الصغير لا يدري من الأمر شيئاً ، فكان العوبة في يد أولئك الأمراء الذين كانوا إذا رأوا واحداً منهم قوى عليهم ، ركنوا إلى مخالفة الأفرنج نهض سيف الدين ابن عم الملك الصالح وصاحب الموصل واستولى على ما كان لنور الدين من البلاد في أرض الجزيرة ، وما استولى عليها إلا بذلك الجيش الذي كان قد طلبه منه نور الدين قبل وفاته ليفزو به الأفرنج كما يقول نور الدين وفي نفسه أن يحارب به صلاح الدين في مصر . استولى سيف الدين على بلاد الجزيرة ، وركن الأمراء الآخرون إلى الاستقلال بما في أيديهم ، فكتب صلاح الدين إلى ابن المقدم والأمراء النورية يعاتبهم على تقاعدهم عن نصرة الملك الصالح ، ووقوفهم جامدين ، وبلادهم يستولى عليها الطامعون ، ويذكر لهم أنهم إن لم ينصروا ابن مولاه ، فإنه يحضر

بنفسه ويقتصص منهم ومن غيرهم ، ولكنهم أهملوا كتابه ولم يعباؤا به
ولولا ما كان عليه الأفرنج في ذلك الوقت من الانقسام الذي يشابه
ما كان عليه المسلمون ، لما تأخروا لحظة واحدة في الاستيلاء على أجزاء
مملكة عدوهم نور الدين ، لكنهم كانوا قد فجعوا بموت ملكهم أمورى ،
وتولى ولده الصغير بلدوين الأبرص كما قدمنا ، فكانت حال المسلمين
والأفرنج سواء

طلب الأمير شمس الدين بن الداية والى حلب إلى الملك الصالح الرحيل
إليه ومغادرة دمشق ، وأرسل في ذلك سعد الدين كشتكين ، فرده أهل
دمشق أولاً ، ثم عاد إليهم ثانية فرحل معه الملك الصالح ، ولما وصل به
إلى حلب قبض كشتكين هذا على ابن الداية وأولاده وغيرهم من أمرائها
وأودعهم السجن ، ثم انحاز إلى جانب الأفرنج ليقوى بهم ، يدلنا على هذا
ما قاله صلاح الدين في كتاب من إنشاء القاضي الفاضل : أرسله إلى الخليفة
المستضيء بالله في بغداد « وتوافقت إلينا الأخبار ، بما للملكة النورية عليه من
تشعب الآراء وتوزعها ، وتشئت الأمور وتقطعها ، وأن كل قلعة قد حصل
فيها صاحب ، وكل جانب قد طمح إليه طالب ، والأفرنج قد بنوا قلاعاً
يتخفون بها الأطراف الإسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وأمرأ
الدولة النورية قد سجن كبارهم وعوقبوا وصودروا ، والممالك الأعماد ،
الذين خلقوا للأطراف لا للصدور ، وجعلوا للقيام لا للعود ، قد هددوا
الأيدي والأعين والسيوف ، وسارت سيرتهم في الأمر بالمنكر ، والنهي
عن المعروف ، وكل واحد يتخذ عند الأفرنج يداً ، ويجعلهم لظهره سنداً »

على هذا كانت فلسطين والشام مملكتين عظيمتين ، يتولى شؤونهما أميران طفلان ، لا قائد يقودهما ؛ فكان من حق صلاح الدين أن يقوم بالغزو من غير توائٍ ولا تأخير ؛ لكنه لما كان غرضه ألا يتعرض للأفرنج لخوفه الشديد على ميراث نور الدين وطمعه فيه حتى يقوى بأهله عليهم ، ظل يراقب الحوادث مراقبة دقيقة ، ليثب في الوقت الملائم ، لأنه لم يشأ أن يثير غضب أهل الشام عليه ، خشية أن يعرقلوا أعماله ؛ ولهذا كان على الدوام يكتب إلى الملك الصالح ، فيظهر له خضوعه وخشوعه وولاءه ، فضرب السكة باسمه ، وخطب له على المنابر ، ثم أظهر للسوريين شدة مراقبته وخوفه على مصالح الأمير الصغير ابن سيده وأستاذه

لما انتقل الملك الصالح إلى حلب ، وتغلب كمشركين على ابن الداية وغيره وسجنهم ، خافه ابن المقدم ومن معه من الأمراء في دمشق ، فراسلوا سيف الدين صاحب الموصل ، وطلبوا إليه أن يعبر الفرات ويقصد بلدهم لنجدتهم ، فأوجس في نفسه خيفة من ابن عمه الملك الصالح ، وظن أن الأمر خديعة ومكيدة ، وخاف إذا وصل دمشق لأخذها ، قام من وراءه الملك الصالح وغدر به ، فأبى عليهم ما طلبوا ، وما طلبوا حضوره إلا ليكون لهم نصيراً على كمشركين ، لتوقعهم أنه إن استقر به الحال في حلب ، عاد إليهم وأوقع بهم ، كما فعل بابن الداية من قبلهم

ولم يقف امتناع سيف الدين هذا إلى حد الأباء فحسب ؛ بل صالح ابن عمه الملك الصالح ، الذي أقره على ما بيده من البلاد التي كانت لآبيه نور

الدين ، نخاف أمراء دمشق خوفاً شديداً ، وأدركوا الخطر المحدث بهم ،
فراسلوا صلاح الدين وطلبوا إليه الحضور لينقذهم من خطر يداهمهم
ما كان لصلاح الدين أن يتمنى أكثر من هذه الدعوة لتكون مبرراً
له عند أهل الشام في غزوه للبلاد ، فلم يتأخر لحظة واحدة ، وأسرع بالمسير ،
فاخترق الصحراء دون أن يكثر ثبوج الافرنج بينه وبين دمشق ،
اعتماداً منه على قوته ، ووثوقاً بنفسه ، وعاملاً منه بأحوال هؤلاء بعد منازلته
إياهم كما سبق

ويؤخذ من عبارة اسيفن سن أنه كتب خليفة بغداد في أن يكون
سلطان مصر والشام ، ليقوم بحرب الافرنج الذين أهمل محاربتهم أتباع
الملك الصالح ، ولم يقفوا عند الكف عن قتالهم ، بل حالفوهم وعاهدوهم
فظهوره بمظهر المدافع عن الإسلام أعانه كثيراً على توالي غزواته
في فلسطين والشام ، فقد جاءت إليه الأمداد من كل حذب وصوب
وعبارة اسيفن سن صحيحة فيما يختص بطلب الولاية ، فقد جاء في الكتاب
المتقدم الذي أرسله صلاح الدين إلى الخليفة ما نصه « وعلمنا أن البيت
المقدس إن لم تيسر الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر إن لم يتجرد العزم في قلعه ،
والأبنت عروقه ، واتسعت على أهل الدين خروقه » إلى أن يقول « وإنا
لا نتمكن بمصر منه ، مع بعد المسافة ، وانقطاع العمار ، وكلال الدواب التي
بها على الجهاد القوة ، فأذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد
قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والخييل مستريحة ،
والعساكر كثيرة الجوع !!! والأوقات مساعدة ، وأصلحنا ما في الشام من

عقائد معتلة ، وأمور مختلفة ، وآراء فاسدة ، وأصراء متخاسدة ، وأطماع
غالبية ، وعقول غائبة ، وحفظنا الولد القائم بمد أبيه ، فأنا به أولى من قوم
يأكلون الدنيا باسمه ، ويظهرون الوفاء في خدمته ، وهم عاملون بظلمه ،
والمراد الآن هو كل ما يقوى الدولة ، ويؤكد الدعوة ، ويجمع الأمة ، ويحفظ
الألفة ، ويضمن الرأفة ، ويفتح بقية البلاد ، وأن يطبق بالأسم العباسي
كل ما تطبقه العهاد ، وهو تقليد جامع لمصر واليمن والمغرب والشام ،
وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله للدولة العباسية
بسيوفنا وسيوف عساكرنا »

ترك صلاح الدين مصر فوصل بصرى وقابله صاحبها بكل إكرام
وكان من جملة الأمراء الذين كاتبوه في الحجى . رحل عنها إلى دمشق ،
فوصلها سلخ ربيع الأول سنة ٥٧٠ هـ (أواخر أكتوبر سنة ١١٧٤ م)
ودخل دار أبيه وجلس فيها قليلا حتى سلمت القلعة ، فذهب إليها واستولى
على ما فيها من الأموال والكنوز ، وفرقها على الأهالى الذين فرحوا
بقدومه فرحاً كبيراً ، لما كانوا يعرفون عن أبيه وعمه ، وسابق خدمتهما
في بلادهم ، وقد مدحه الشعراء كثيراً ، من ذلك قول وجيش الأسدى
قد جاءك النصر والتوفيق واصطحبها
فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد
أدنى فريسته الأيام إن وثبا
رأيت جلق ثغراً لا نصير له
فجئتها عاصراً منها الذى خربا
نادتك بالذل لما قل ناصرها
وأزمع الخلق من أوطانها هربا
والشام لو لم يدارك أهلها اندرست
آثاره وعفت آياته حقبها

وكان صلاح الدين يُظهر في كل مكاتباته ومحادثاته أنه ما جاء إلى ديارهم إلا لنصرة ابن سيده الملك الصالح ؛ ومن ذلك ما قاله لرسول حلب بعد امتلاكه دمشق « يا هذا ! اعلم أنني ما وصلت إلى الشام إلا لجمع كلمة الأسلام ، وتهذيب الأمور ، وحياطة الجمهور ، وسد الثغور ، وتربية ولد نور الدين ، وكف عادية المعتدين » وذا كراً للناس أنه لو لم تقا حجة النية نور الدين لا عان للناس أنه أدلى إليه بأبنه الملك الصالح ليكون في كنفه ، وموضحاً لهم أنه هو وحده القادر على حماية مُلك نور الدين ، والتغلب على الأفرنج ، إلى غير ذلك مما جعل أهل الشام لا يعارضون فيما يفعل ، بل تقدموا إليه بالمساعدة التي طلبها

أقام في دمشق قليلاً حتى رتب شؤونها ، وسلمها إلى أخيه سيف الأسلام طفتكين ثم انحدر منها إلى حمص فملكها دون قلعها ، فترك من يحاصرها ويحفظ المدينة ويدبر شؤونها ، وسار منها إلى حماه ، وكان الوالي عليها الأمير عز الدين جورديك أحد أولئك الذين كانوا معه في الحملة الثالثة على مصر ولم يشأ أن يخدم تحت حكمه ؛ امتنع جورديك أولاً ، فأعلمه صلاح الدين أنه إنما جاء ليحفظ البلاد من الأفرنج ، ويسترد ما استولى عليه صاحب الموصل من البلاد النورية ، وأنه في طاعة الملك الصالح ، فسامه المدينة مستخلفاً على قلعها أخاه ثم قبل أن يكون رسولا لصلاح الدين إلى كشتكين في حلب يطلب منه فك الأسرى وإطلاق المسجونين وعدم العمل على تفريق كلمة المسامير ؛ فأخذه كشتكين وسجنه مع من سجن من قبل ، فاما علم أخوه بذلك سلم القلعة إلى صلاح الدين ، فرحل هذا بعد

تسلمها إلى حاب الموجود بها الملك الصالح ووزيره كشتكين . رأى أصحاب حاب ألا قبل لهم بمحاربة صلاح الدين في العراق فتحصنوا داخل مدينتهم مغلقين أبوابها في وجه ذلك القادم ، فأقام الحصار عايتها ثالث جمادي الآخرة سنة ٥٧٠ (٣٠ ديسمبر سنة ١١٧٤) وأعلن أنه ما جاء معادياً إنما أتى ليخلص سيده الملك الصالح من شر ذمة الأمراء وعلى رأسهم كشتكين

خاف الملك الصالح من هذا القادم المتظاهر بالأخلاص ، ولم يثق كذلك بحالة كشتكين ، وظن أن القوم قد تقابل صلاح الدين وتخدع بما يقول ، فطاف بهم وقال « قد عرفتم إحسان أبي إليكم ومحبة لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم ، وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدي إليه يأخذ بلدي ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق ، إلى غير هذا حتى بكى فأبكى الناس ، فتجمعوا حوله وقاوموا كل ما أبداه صلاح الدين من عنف في الهجوم

رأى كشتكين أن أمر صلاح الدين عليهم جليل ، فواصل جماعة الأسماعيلية ، وهم باطنية شيعية ، وقد يكون لهم يد في المؤامرة التي قام بها عمارة اليمنى في مصر ، فأوفد إلى شيخ الجبل راشد الدين سنان ، وهو صاحب الدعوة الأسماعيلية بقلاع الشام ورئيس الطائفة كلها ، رسولاً يطلب إليه مناصرته ومعاونته ، فأرسل إليه جماعة تغتال حياة صلاح الدين ، طاب هؤلاء المشول بين يدي صلاح الدين ، فأدخلوا خبائه ، ولم يكدر يستقر قرارهم حتى انكشفت نيتهم ، فقتل عميدهم وأخذ الباقي في الفرار فقتلوا تقتيلاً ، ولم تؤثر مؤامرتهم أدنى تأثير في حصار حلب فلما خاب كشتكين في متمناه هذا عمد إلى ناحية الأفرنج ، وكان قد

أخلى سبيل رياموند أمير طرابلس وأسير نور الدين منذ عدة سنوات .
أطلقه كهشكين عند قيامه بأمر حلب ، فطلب إليه أن ينجده ، فصادت
هذه الدعوة ميل رياموند للأخذ بالثار لنفسه وقومه ، وكان في ذلك الوقت
هو القيم على الملك بولدوين الرابع ملك القدس ، فأسرع بجيش نحو حمص ،
فعلم بأمره صلاح الدين ، وما كان يخفى عليه خطر الأفرنج إذا غلبوا ، ففك
الحصار عن حلب وقصدهم ، فلما علموا بهذا عادوا من حيث أتوا ، فصار
إلى دمشق ، واستولى في طريقه على بعلبك

نظر الملك الصالح وأتباعه إلى ما وصل إليه أمر صلاح الدين ، وما
استولى عليه من البلاد الشامية ، فراسلوا سيف الدين غازي صاحب
الموصل ، فقام وجند الجنود وجمع المؤن وغيرها ، وواصل السير بها حتى
اجتمع بابن عمه الملك الصالح ، وانضم جيشه إلى جيش حلب ، وقصدوا
جميعاً صلاح الدين ، فراسلهم في الصالح ورغبهم فيه ، حقناً لدماء المسلمين ،
فلا يتخذ الأفرنج من هذا النزاع سبيلاً إلى تملك البلاد واستعباد العباد ،
وقدم لهم كل البلاد التي استولى عليها ، على أن يبقى في دمشق نائباً للملك
الصالح فيها ، فأبوا عليه إلا أن يسلم كل ما بيده ، ويعود إلى مصر ، فتجهز
لهم وخرج يقصدهم ، فنازلهم بالقرب من حماه وانتصر عليهم يوم تاسع
عشر رمضان سنة ٥٧٠ (١٣ أبريل سنة ١١٧٥) انتصاراً عظيماً حتى
أصبح الواحد منهم لا يلوى على أخيه من شدة فزعه وخوفه ، وما زالوا في
فرارهم وهو من ورائهم يستولى على أثقالهم حتى دخلوا حلب ، فحاصروهم بها

عاد سيف الدين إلى بلده قلق البسال خائفاً يترقب وظن أنه إن سكن ولم يتأهب، فاجأه هذا المغير الذي ظهرت بسالته وشجاعته ، فقام على قدم الجسد والنشاط يجمع الجيوش من كل أطراف بلاده وما جاورها ، فجمع جيشاً بلغ عدده ستة آلاف مقاتل وتوجه به إلى مكان يعرف بتل السلطان حيث تقابل مع الجنود الصلاحية التي كانت قد وصلت بعد وصول جنود صاحب الموصل ؛ ولو فاجأ هؤلاء أولئك عند وصولهم لدارت الدائرة على الأجناد الصلاحية ، ولكن قائد جند سيف الدين أخر القتال لغده ، فأعطى بذلك فرصة كبيرة لجيوش عدوه ، فارتوت واستراحت ، ثم نازلتهم وجهالوجه وانتصرت عليهم انتصاراً باهراً وأسر عدد كبير من جنود الموصل وجرح غيرهم ، ووقعت غنائمهم كلها في قبضة صلاح الدين ؛ أما الذين بقوا من جيوش الموصل ، فولوا وجوههم نحو حلب . أما صلاح الدين فإنه سار بما غنم إلى بزاغة وتسلم قلعتها ثم سار منها إلى منبج واستولى عليها ثم قصد قلعة أعزاز أو عزاز وهي على بعد ١٥ ميلاً من حلب فضيق عليها الحصار حتى سلمت إليه

وبينما هو يحصر قلعة أعزاز هذه إذ انقض عليه أحد الخوارج حين كان في خباء أحد قواده وضربه على رأسه ضربة كادت تقضي عليه لولا دروعه ؛ أما الخارجي فقد أرسل الله من قبض عليه وقتله ، فدخل خارجي آخر ثم آخر ولكن السكل لا قوا حتفهم ، وقد بعث القاضي الفاضل كتاباً إلى الملك العادل يطمئن خاطره على هذا الحادث يقول له فيه « السلامة شاملة ، والراحة بحمد الله للجسم الشريف الناصري حاصله ، ولم ينله من

الحشيشي الملعون إلا خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة ، انقطعت
لوقتها واندمت لساعتها ، والركب على رسمه ، والحصار لعزاز على حكمه ،
وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدرأ ولا ما يشغل سرأ ، ويظهر أن
هؤلاء الخوارج كانوا قد اندسوا في صفوف حرسه بأغراء من كشتكين ،
كما اعتقد صلاح الدين ، إذ ذهب مسرعاً نحو حاب ليوقع العقاب بمن دس
هذا السم القتال ، فاحصرها وامتنع أهلها ولكن لم يطيقوا شدته ورأوا ألا
قبال لهم بذلك فتراسلوا في الصالح ، وكانت من شروطه أن يكونوا جميعاً
على من ينكث الأيمان أو ينقض العهد

ولقد خرجت لصلاح الدين في هذا الحصار وهو الثالث ابنة نور الدين
وأخت الملك الصالح ، وهي بنت صغيرة فقابلها بالحنفاة والأكرام ،
وأعطاهما من المال والهدايا شيئاً كثيراً ، وسألها عما يطلبه قومها فقالت :
إنهم يريدون إعزاز ، فوهبها لها ، وردها إلى حلب بما يليق بمقام أبيها من
التجلة والاحترام إذ أوصاها بنفسه وحرسه إلى أسوار المدينة

فلم صلاح الدين بعد ذلك بفك أسر من أسر في تلك المواقع بعد أن
أدى من العناية بجر حاتم ما أطلق السنة للجميع بمدحه والثناء عليه ، وكان فيهم
أناس من عليّة القوم ، فعادوا يتحدثون بكرمه وجوده وشفقته وحسن
معاملته ، ذاكرين ما قد أغدق عليهم به من الهدايا عند ما فك أسرهم بعد
أن ضمد جروحهم ، فأصبحوا مدينين له بحياتهم ، ورغب كثير منهم في
الدخول تحت طاعته والانتظام في سلك خدمته

ويظهر أن المخبرات التي دارت في مسألة الصالح المتقدم لم يكن يقصد

بها صلاح الدين سوى اكتساب الوقت ، لأنه ما كان يرضى بأى حال من الأحوال التنازل عما استولى عليه ؛ أراد أن يكسب الوقت من جهة ، وأن يظهر للناس عامة أنه ما جاء لغزو أو فتح ، بل جاء ينصر الأمير الصغير لما رأى الملك الصالح شدة حصار المدينة اتفقت كلمته مع قومه على قبول صلح مع صلاح الدين يقضى بأقراره على ما بيده من البلاد التي افتتحتها ، فأصبح صلاح الدين سيداً على دمشق وحمص وحماء ومدن كافر طاب وبعرين والمعرة ، تلك التي لا تبعد كثيراً عن حلب ، وبعبارة أخرى أصبح الملك الصالح وليس له من البلاد إلا حلب وما والها

اتخذ صلاح الدين طريقه قافلاً إلى دمشق فوصلها في شوال من السنة عينها (مايو سنة ١١٧٥) وبوصوله إليها وصلت إليه خلع الخليفة وأمر الولاية من قبله على مصر والشام ، واعترف من الخليفة له بأنه أصبح سلطاناً لهما وفي هذه الخلع يقول ابن سعدانى الحلبى

يا أيها الملك الغزير فضله	لقد غدوت بالعلى مليا
كفى أمير المؤمنين شرفاً	أنك أصبحت له وليا
طارحك الود على شحط النوى	فكنت ذاك الصادق الوفيا
أولاك من اباسه زخرفة	لم يولها قبلك آدميا
ناسبت الروض سنا وبهجة	حتى حكته رونقاً وريا

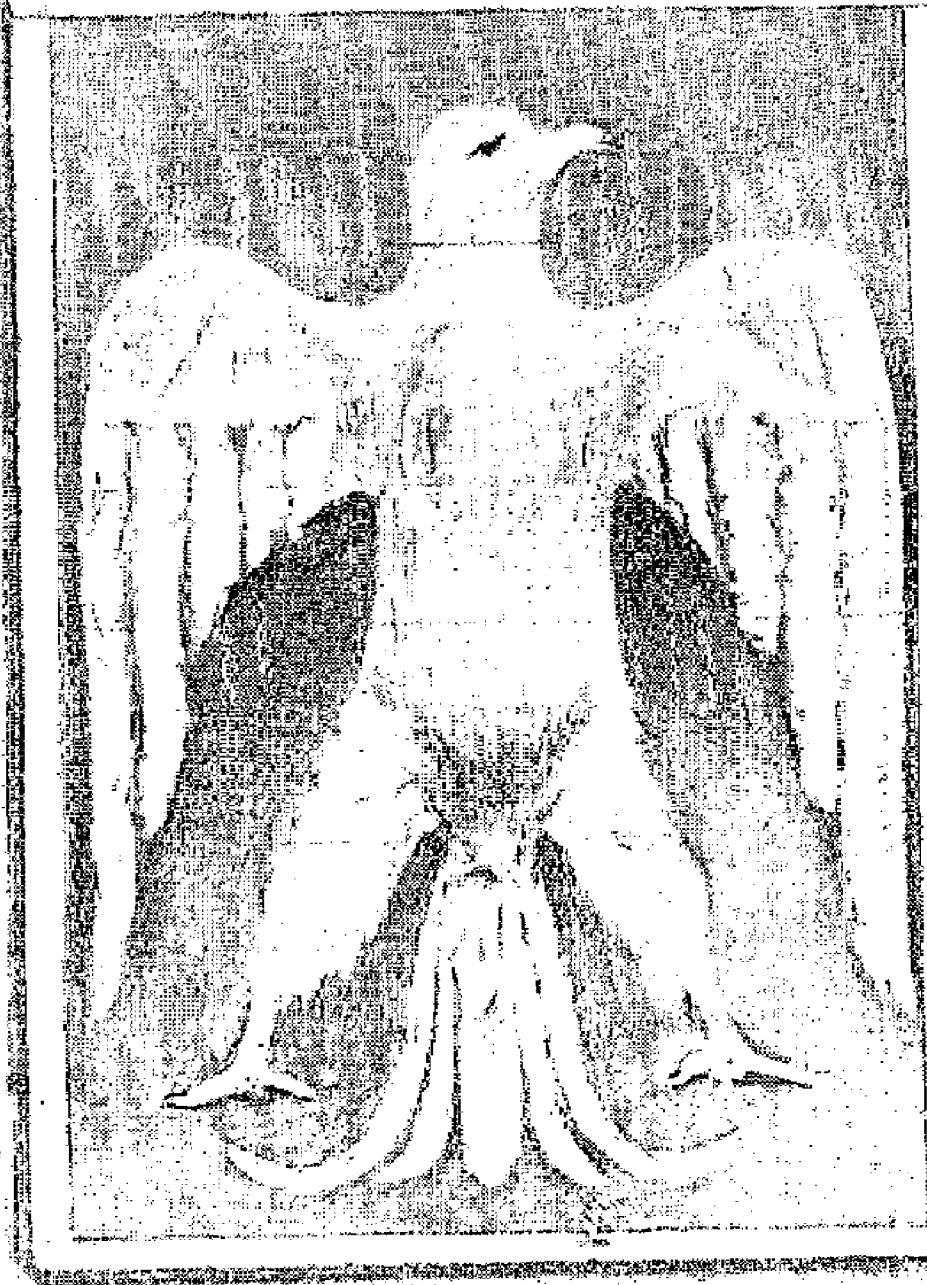
فأمر بقطع اسم الملك الصالح من الخطبة ، وضربت النقود في القاهرة باسمه بدل الملك الصالح ، فكتب عليها « الملك الناصر يوسف بن أيوب » أما جنده فقد وزع عليهم الغنائم كلها دون أن يبقى لنفسه شيئاً منها ،

وبهذا قام السلطان بعمالين كبيرين الأول أظهر به كرمه وسخاؤه ، والثاني أظهر به أنه رجل سياسي محنك بعيد النظر ، فقد نتج عن سلوكه هذا أن رغب جيشه في الغزو ، وأصبح على استعداد تام للسير وراءه أنى سار وحيث ذهب

ذلك سر من أسرار نجاح هذا الرجل العظيم في تلك البلاد النائية عن منبع قوته مصر

كان على السلطان بعد هذا أن يعاقب الطائفة الأسماعيلية على شر ما جنته أيديهم ، ومحاولة اغتياله ، فأخذ جيشاً وسار به إلى الجبل ، فأحرق بعض قراهم وخربها ، وكانت لهم قلعة يقيم بها رئيسهم شيخ الجبل سنان ، يسميها ابن الأثير مصبات ويسميها غيره مصياف أو مصيف ، فضيق عليها السلطان الحصار ، وما زال يشدد عليها حتى أرسل سنان إلى خال السلطان وهو صاحب حماه أن يتوسط في الصلح فأجيب إلى ما طلب

قضى السلطان بهذه الغزوة على أحلام بقايا الفاطميين في مصر ، فانتطمع رجاؤهم في كل مساعدة تأتي لهم على يد هؤلاء الخوارج ، كما أنه قضى على آمال الأفرنج في هذا السيف نفسه ، ذلك السيف الذي طالما استلوه ضد المسلمين ، وهو ما لم يستطع نور الدين أن يقضى عليه القضاء الأخير إذ كل ما فعله بهم أن أبقاهم في أمكنتهم دون أن يذهب لهم فيها رحل السلطان إلى دمشق ، وصرف العساكر إلى أوطانهم ليتمتعوا ثم واهلهم بما غنموا ، وليستريحوا من عناء الحرب ومتاعبها لا سيما وأنه قد هادن الأفرنج



نسر على حائط القلعة

وصل إليه أخوه طوران شاه وإلى اليمن ، بعد أن أرسل إليه خطاباً يعلمه فيه أنه قادم عليه ، وفي الخطاب شعر من عمل ابن المنجم المصرى يدل على الأخلاص والطاعة لأخيه صلاح الدين كقوله
وأقدمن إليه قلبى مخبراً أنى بجسمى من قريب أتبع
رأى صلاح الدين وقد غاب عن مصر سنتين أن يتفقد حالها بنفسه ،
فعمزم على الرحيل إليها ، فأقام أخاه طوران شاه المذكور مكانه وسار إليها
فوصلها وأخذ يرتب أمورها ويقيم الأبنية فيها ، وفي هذه المرة بدأ فعلاً
فى بناء القلعة والسور

أما القلعة فقد كانت من يوم تأسيسها إلى اليوم عرضة للتغيير والتبديل
حتى خرجت عما كانت عليه أولاً ، والذي يوجد بها الآن من بقايا السلطان
صلاح الدين إنما هو ذلك النسر فى إحدى حيطانها ، وقد كان هذا النسر
علم صلاح الدين الشخصى « نسر أحمري فى قماش أصفر »

أما سور المدينة فقد أخبرنى حضرة الفاضل يوسف أفندى أحمد مفتش
دار الآثار العربية بأنهم عثروا على جزء منه مع بواية من بواباته وذلك أثناء حفرهم
على أنقاض مدينة الفسطاط ؛ وليس سور صلاح الدين بالوحيد ، فقد
بنى قبل ذلك مرتين ، الأولى حين بناه جوهر الصقلى قائد المعز الفاطمى
عند ما اختط له مدينة القاهرة ، والثانية حين بناه أمير الجيوش بدر الجمالى
وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، بناه حول السور الأول ، وهذان
السوران بنيا بالدين ، أما سور صلاح الدين فقد بنى بالحجارة ؛ تولى أمر
بنائه قراقوش الأسدى ، وكان غرضه أن يضم الأبنية جميعها داخل

الأفرنج وعاد إلى مخاطبتهم على أن يعودوا ، فوصل هذا الخبر إلى نور الدين ، فترك تروده وأسرع في إرسال جنده حتى لا يصل الأفرنج قبله وفوق هذا فقد بين شيركوه لنور الدين ما لا متلاك مصر من الفوائد في حرب الأفرنج في الشام ، فإنه من دلتنا مصر يمكنهم أن يرسلوا جيشاً يحارب السواحل الشامية ويناوي النجيدات الأوروبية ، وبامتلاك مصر تصبح القدس بين نارين ، نار من الشام ونار من مصر نفسها ؛ غير أنه لا بد لنا من ملاحظة شيء هام في إلحاح شيركوه على نور الدين ، إذ كان يطمع في امتلاك مصر ليكون مستقلاً بها ولو بعض الاستقلال ، لأنه لم يكن في مركزه الحالي إلا عاملاً من عمال نور الدين ، أما إذا امتلك مصر فإنه سيكون ممثله فيها ، فهو مستقل عنه نوعاً ما . على أي حال من الأحوال وعلى أي غرض أقام دفاعه ، فلقد كان شيركوه الشخص الوحيد الذي وحد قوات مصر والشام وأسس أسرة تحكم الديار المصرية

ما زال شيركوه يسهل الأمر على نور الدين ويحسن له فتح مصر حتى رضى بتجريد حملة إليها ، وهنا وطد شيركوه العزم وشد الرحال وجهاز الجيش وأخذ معه شاورا وابن أخيه صلاح الدين ، وقام نور الدين بنفسه لوداعهم ، ثم بدأ يغزو حدود مملكة القدس حتى لا يتنبه الأفرنج إلى حماته وهي تسير نحو مصر بجوار حدود مملكتهم ؛ وبهذا وصل شيركوه ونازل الضرغام

انهزمت الجيوش المصرية عند بلبس فتقهقرت إلى جدران القاهرة وتحصنت فيها ، فاحتل الأكراد الفسطاط ، والضرغام وجنوده داخل

السور ، ثم حفر حوله خندقاً عظيماً

عاد السلطان صلاح الدين إلى مصر بعد أن رتب أمور الشام ، وبعد أن هادن الأفرنج وحالف الملك الصالح وأقاربه ، وبعد أن ركن الباطنية إلى الخوارج والسكينة ، بيد أن التاريخ يحدثنا عن مقدار العهود والمواثيق عند هؤلاء الأفرنج ، إذ لم يكن لها عندهم وزن ولا قيمة أكثر من أنها فرصة يتحينون بها الوقت الملائم للعمل ، فلما علموا بغياب السلطان عن الشام ، قاموا في جهات شمالى القدس يغزون البلاد وينهبون العباد ، شأنهم منذ حاولوا تلك الديار ، فغزت طائفة منهم بعليك من غير جدوى ، وأخرى ولت وجهها نحو دمشق فانتصرت على المسلمين انتصاراً تمكنت به من أسر جماعة من المسلمين من بينهم ابن السلار أحد قواد أجناد الشام المشهورين وانهزم طوران شاه هزيمة منكرة

علم السلطان بما فعل الأفرنج ، فغزى جهات فلسطين الجنوبية ، وما وصل إلى الرملة حتى فاجأه ملك القدس وشتت شمل جيشه وأوقع به هزيمة كاد يقع فيها السلطان أسيراً ، وكتب إلى أخيه طوران شاه كتاباً يبلغه ما وقع له ، جاء في أوله

ذ كرتك والخطي تخطر بيننا وقد نهلت منها المثقفة السمر

ويتول فيه « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما نجانا الله منه إلا لأمر يريده سبحانه وتعالى - وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر - » وقعت هذه الحوادث في سنة ٥٧٣ هـ ، وقد أسرف في هذه المواقع الفقيه عيسى الهكاري وفداه السلطان بعد ذلك بمبلغ كبير من المال

قفل السلطان راجعاً إلى مصر وهو على غاية ما يكون من التعب هو ومن بقي معه من الجنود ، فأعد العدة وأخذ يجمع الجيوش لينادر بها الديار المصرية ليقضى بها على هؤلاء الأفرنج ، وبعد ثلاثة أشهر (في شعبان) قاد السلطان جيشه إلى الشام ، واتصل بالدمشقيين ، وأخذ يناوئ الأفرنج الذين قاموا قبل وصوله بغزو حماه التي امتنعت عليهم ، فارتدوا عنها إلى حارم ، وكانت إقطاعاً لكمشتكين ، وكان الملك الصالح قد قبض عليه في خلال تلك المدة وعذبه على قتله أبا صالح الأعجمي ، وكان من المقربين إلى نور الدين ؛ علم الأفرنج بهذا الحال فحاصروا حارم ، ولم يتخلوا عنها إلا بعد أن عرض عليهم الملك الصالح مبلغاً من المال ليرحلوا عنها

طلب طوران شاه من السلطان لنفسه بعلبك وكانت في يد ابن المقدم الذي امتنع عن تسليمها ، فكانت بهذا فتنة بينه وبين السلطان ، إلا أنه أعطي بدلاً منها كفر طاب وماجاورها

رأى الأفرنج أنفسهم وقد ضعفوا ، فأخذوا يحيطون أنفسهم ببلادهم بالمعاقل والحصون ، فبدأوا ببناء قلعة بالقرب من سهل بنياس عند بيت يعقوب عليه السلام ، بمكان يعرف بمخاضة الأحران ، وكان هذا المكان حرمًا بين المسلمين والأفرنج

وجد صلاح الدين في إقامة هذه القلعة خطراً يهدده لاجودة موقعها ، فوهب لهم المال ليكفوا عن البناء فلم يقبلوا ، واستمروا حتى اكملوا بناءها ، وكانت هذه القلعة هي قلعة يعقوب الشهيرة ؛ ملاءها الأفرنج بالذخيرة والميرة ، فكانت مركز دفاع حصين ، ومنبع مدد كبير ، وفيها يقول ابن

الساعاتى دمشق

أتسكن أوطان النبيين عصابة تين لدى أوطانها وهي تحلف
نصحتكموا والنصح للدين واجب ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

قاد الملك بلدوين الرابع بعد هذا جيشاً نزل به على أعمال دمشق ،
فأرسل السلطان الأمير فروخ شاه بن أخيه بجيش لحربهم ، فنازلهم وجهاً
لوجه ، وانتصر عليهم انتصاراً باهراً كاد يأخذ الملك فيه أسيراً لولا بسالة
إفرنجي يسمى همفري بعد أن جرح جرحاً بليغاً كان السبب في هلاكه
بعد اثني عشر يوماً ، ففقد الأفرنج بموته بطلاً من أبطالهم المقدمين

أما السلطان فإنه ذهب إلى بنياس لتخريب قلعة يعقوب ، فأقام عليها
الحصار حتى تأتي له بقية الجند ، وهو في هذا الحين يشاغل الأفرنج
الآخرين ، فيرسل السرايا لتنهب البلاد المجاورة كصيدا وبيروت

علم ملك الأفرنج بما يقوم به المسلمون من النهب والسلب وشن
الغارات على بلاده ، وأراد أن يحجوا عاراً ركبته في الموقعة الماضية ، فجمع
جيشاً اشترك فيه كثير من عليهم ، وساروا من صفد إلى أعالي وادي
الأردن ، ونزلوا بمرج العيون ، وأوقعوا بالمسلمين هناك واقعة ظنوا أنهم
قد قضوا بها عليهم ، وما هي إلا لحظة نادى فيها السلطان على جيشه فتجمع ،
وهب السكل صفاً واحداً وضربوا ضربة مؤلمة قاسية ، فقتلوا عدداً كبيراً ،
وأسروا خلقاً عظيماً . بيد أن الموقعة نفسها لم تكن بذات خطر إلا من
حيث أنه قد أسر فيها كثيرون ، من بينهم رياموند صاحب طرابلس ،
وبولدوين صاحب الرملة ، وهوج صاحب طبرية ، وغيرهم ، وكان عماد الدين

الكاتب المشهور يكتب هؤلاء الأسرى على ضوء مشعل في خيمة السلطان يوم الأحد ثاني المحرم سنة ٥٧٥ هـ (١٠ يونيو سنة ١١٧٩ م) أما صاحب الرملة فقد فدى نفسه بمبلغ ١٥٠ ألف قطعة من الذهب ، وتعهد بإطلاق سراح ألف من أسرى المسلمين الذين كانوا لا يزالون في الأسر عنده عاد السلطان بعد شهرين من هذه الموقعة إلى حصار قلعة يعقوب ، ولم يطل مقامه أمامها أكثر من خمسة أيام حتى استولى عليها ، وأسر من فيها من الأفرنج ، وأرسلهم إلى دمشق بعد أن فك اعتقال من كان بها من المسلمين ، ثم أمر بهدمها فهدمت حتى جعلها هي وماجاورها من السهل سواء ، وفي هذا يقول النشو بن نفاذه

هالك الفرنج أتى عاجلاً وقد آن تكسير صلبانها

ولو لم يكن قد دنا حتفها لما عمرت بيت أحزانها

أصبح مركز الأفرنج بعد تخريب هذه القاعة في خطر شديد ، فأن السلطان صلاح الدين بما أعد من الأساطيل قدهاجم عكا ونهب جهاتها ، وقام المسلمون بالسلب في جهات صفد وهددوا طبرية ، فلم ير ملك القدس وأعضاء مجلسه إلا أن يهادنوا السلطان فهادنهم لمدة سنتين ، ولم تدخل في هذه المهادنة طرابلس ولا أنطاكية ، فناوأساموا الشمال أهل طرابلس الذين لم يجسروا على البعد عن قلاعهم ، وانتهى أمرهم بأن صالحوا المسلمين ، وبقيت أنطاكية وحدها وقد نشبت فيها الاختلافات الحزبية فلم تقدم على عمل عدائي للمسلمين . ويقول ميشود عن هذه الهدنة إنها جديرة بالاعتبار ، لأن المسلمين حافظوا على عهودهم ومواثيقهم ، في حين أن

الأفرنج ، كعادتهم ، اتخذوها وسيلة لأعلان حرب أخرى
ولى السلطان صلاح الدين وجهه نحو إتمام مهمته في الشمال ، إذ قد
حدث أن أمير حصن كيفا كان قد تزوج بابنة قاييج أرسلان سلطان قونية
غير أن الأمير بعد قليل عاملها معاملة سيئة وتزوج من فتاة مغنية ، فكان
هذا سبباً في أن أعلن قاييج أرسلان الحرب على الأمير نور الدين صاحب
حصن كيفا ، وكان هذا الأمير حليف السلطان صلاح الدين بمقتضى الصالح
الذى عقد بعد حصار حلب الأخير ، فكان على السلطان بموجب هذا أن
يدافع عن حليفه ، لا سيما وأنه هو نفسه على عداوة مع قاييج أرسلان منذ
حصلت واقعة حصن رعبان ، بيد أن الأمر لم يطل إذ انتهى بين الطرفين
المتعادين من غير إهراق قطرة دم واحدة ، وقد مكن هذا الصالح السلطان
من السير شمالاً لمحاربة الأمير الأرمني روبين صاحب أرمينيا الصغرى ،
وقد وقعت بينهما واقعة خضع بعدها روبين وأخذ على نفسه الموائيق
والعهود ألا يتعرض إلى الرعاة الأتراك الذين يرعون بجانب بلاده

علم جمهور المسلمين في تلك النواحي بما ناله السلطان صلاح الدين من
النصر في كل مكان ، فعرفوا قوته وأدركوا سطوته فتقدم الجميع لمخالفته
والدخول تحت كنفه وقبول سيادته ، فعقدت مخالفة كهري في جمادى الأولى
سنة ٥٧٦ هـ (١ أكتوبر سنة ١١٨٠ م) وقد وقع عليها أمراء الجزيرة كلها
وهم أمير الموصل وصاحب الجزيرة ، وأربل ، وكيفا ، وماردين ، ولساطان
قونيا ، وملك أرمينيا أيضاً . كانت مدة هذه المعاهدة سنتين أخذ القوم
على أنفسهم الأيمان والموائيق ألا يشهروا فيها سيفاً ، فانتهت الحرب بها

في تلك الجهات ؛ ومن هذه المحالفة ندرك ما وصل إليه السلطان صلاح الدين من المركز الكبير الهام ، وما وصلت إليه قوته ، فانتشر اسمه فيما بين البحر الأسود وخليج الفرس شرقاً والبحر الأبيض المتوسط غرباً ، كما أن هذه المحالفة دلت دلالة واضحة على إمكان جمع شتات هذه الأمارات كلها والدخول بها مع الأفرنج في حرب دينية مقدسة ، كما كانت بلا شك الحجر الأول الذي وضع لتلك الحروب القادمة مع الأفرنج . على أنه لا يزال أمام السلطان صلاح الدين بعض الأعمال الأخرى حتى يستطيع القيام بأمر الجهاد الذي وضعه أمام عينيه منذ تولى وزارة مصر

رأى صلاح الدين وقد هادن الأفرنج والمسلمين على السواء أن الفرصة ملائمة لزيارة مصر ليرى ما يجري فيها من الأعمال ، فشد الرحال إليها وبدأ السير في رجب سنة ٥٧٦ هـ (أو آخر سنة ١١٨٠ م) تاركاً الأمير فروخ شاه بن أخيه يدير دفة الأمور في الشام

وصل إلى مصر وأخذ ينظم أمورها وينشئ المدارس والمسالك والطرق والجسور ، ثم خطر له أن يحصن الأسكندرية على خان أن أهل أور وبا قد تهاجمه فيها ، ويقال إن سبب عودته إلى مصر كان لوفاة أخيه طوران شاه الذي تولى بعلي بك ثم تركها لولاية الأسكندرية مع اليمين بولى عليها من ينوب عنه قبض رينولد (أرناط) صاحب الكرك على قافلة تجارية كانت قد صرت بالقرب من بلاده ونهبها وأسراهاها وخالف شروط الهدنة ، وحصل أن دنت من ثغر دمياط مركب ثقل كثيراً من حجاج المسيحيين الأوربيين ، فقبض عليها السلطان جزاء ما صنعه أمير الكرك مع قافلة المسلمين

وجاء إلى السلطان أن سيف الدين غازي صاحب الموصل قد مات وترك بلاده ومملكته إلى أخيه عز الدين مسعود ، عدا جزيرة ابن عمر فإنه أعطاهما لولده سنجر شاه ، كما أعطى قلعة عقر الحميدية لولده ناصر الدين كشك وجعل أمرهما بعدموته إلى أخيه عز الدين هذا ، وما اختار عز الدين لمملكته إلا خوفاً على بلاده من السلطان ، إذ كان ولده الأكبر سنجر شاه لا يزيد سنه على اثنتي عشرة سنة قبيل وفاته

وصل إليه بعد ذلك خبر وفاة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين (٢٥ رجب سنة ٥٧٧ - ؛ ديسمبر سنة ١١٨١) وكان عمره حين وفاته نحو ١٩ سنة ، فأوصى بمملكته إلى ابن عمه عز الدين مسعود وإلى الموصل إذ ذاك دون أن يوصى به إلى عماد الدين صاحب سنجر وهو زوج أخته ، لعلمه أنه لا يقوى على الاحتفاظ من إغارة السلطان الذي إذا ملك حلب ملك كل ما لأهلهم من البلاد ، أما عز الدين مسعود فقد أصبح بما له من البلاد في الموصل قادراً على جمع الجيوش الجرارة ومحاربة السلطان . ولما تم تنازل الملك الصالح إسماعيل عن مملكته إلى عز الدين مسعود غادر الموصل إلى حلب ، وما كد يطيب له المقام هناك حتى كتب إليه أخوه عماد الدين صاحب سنجر في أن يستبدل حلب بسنجر ، فأجابه إلى ما طلب ، فرحل إليه وتسلم منه حلب في ١٣ محرم سنة ٥٧٨ (١٩ مايو سنة ١١٨٢) وتسلم سنجر ، وعندئذ عاد عز الدين إلى الموصل

وقد قابل أهالي عدة بلاد من بلاد الشام والجزيرة هذه الحوادث بالفرح والسرور حتى كاد يخرج بعض بلاد صلاح الدين من يده ، وينضم إلى حلب أو غيرها

أما السلطان فإنه حزن حزناً شديداً لموت الملك الصالح ، ورأى في
تغيبه عن بلاد الشام خسارة عليه ، على زعم أنه هو الوارث الحق للملك
الملك الصالح ، ولأنه كان يفكر على الدوام في أنه لا سبيل إلى منازلة حاب
إلا بعد وفاة الملك الصالح ، ولكن تملك رجل كعماد الدين هذه المدينة
كان من غير شك عقبة جديدة في سبيله إليها ، على أنه فوق هذا لا يستطيع
القيام بعمل عدائي في هذا الأوان ، عملاً بشروط الهدنة التي كان يحافظ
على تنفيذها ، وما عُرِف عنه أنه أدخل يوماً بشرط أو نقض عهداً أخذه
على نفسه ، وما كان أمد الهدنة ينتهي إلا بعد أربعة أشهر من تسلم عماد
الدين حاب ، غير أنه ما رغب في نقض هذه الهدنة رغم ما سمعه من أن
بعض حلفائه المسلمين قد حالفوا الأفرنج وشيخ الجبل ليعمل الجميع ضده
على أنه عدوهم

أسرع السلطان إلى الشام ليحتمي أتباعه من جهة ، وليحتفظ ببلاده
من جهة أخرى من شر تلك الفتن ، واحتفل بوداعه بمصر أناس كثيرون ،
وأخذ الشعراء ينشدون القصائد في حضرته ، وبينما القوم في فرحهم
ومرحهم إذ بأحد المربين لأولاده قام وقال

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
فانقبض السلطان وكان الأصر كما قال هذا المربي ، فأن صلاح الدين
لم يعد إلى مصر بعد هذه المرة مع طولها . سار السلطان وسار معه جماعة
من الأصراء وأصحاب المظاهر في الدولة ، وفيهم نفر كبير من التجار وأهل
البلاد ، فروا بمدينة إبله (العقبة) إلى طريق الصحراء ، وقد علم السلطان

أن الأفرنج تجمعوا لمقاتلته ، فأرسل الأتقال والضعفاء إلى دمشق مع أخيه تاج الملوك بوري ، وسار هو والعسكر فشن الغارات بأطراف البلاد ، فأتجاسر إفرنجي على أن يدنوا منه ، وظل في طريقه على حاله حتى وصل دمشق ، فلما عادت الأفرنج المجتمعة إلى بلادهم وجدوا أن المسامين بقيادة فروخ شاه قد نهبوا وسابوا بلادهم من ناحية طبرية وأغاروا على شقيف التي طالما تأذى المسلمون منها

وصل السلطان دمشق في صفر سنة ٥٧٨ هـ (يونه سنة ١١٨٢ م) بعد أن بلغه وهو في الطريق تخريب الشقيف ، ففرح فرحاً شديداً . وصل دمشق وأراح بها جنده ثم أخذهم بعد شهر تقريباً وشن الغارة بهم على بلاد الأفرنج الذين قد تجمعوا في جهات طبرية ، فأشبعهم قتلاً ، ودخل بجنده مدينة بيسان ثم عاد إلى دمشق يحمل ما قد غنم

ثم غادرها بعد شهر إلى حصار بيروت برأ بعد أن حاصرها من البحر أسطول مصري ، غير أنه رجع عنها قاصداً بلاد الجزيرة بدعوة من كوكبوري صاحب حران لخوفه من صاحب الموصل ، وما كان السلطان ليتأخر لحظة واحدة عن التدخل في أمر تلك البلاد ، وما هي إلا أيام من تلك الدعوة حتى انقضى أمد المعاهدة ، ووجد السلطان كثيراً من الأمراء يرسلونه في الدخول تحت طاعته ، يتقدمهم كوكبوري المذكور ، ونور الدين صاحب حصن كيفا ، ثم تبعهما صاحب بلاد الرها وسروج والرقه وقرقيسيا ونصيبين ، وبهذا سهل عليه الطريق إلى حصار الموصل التي لم يبق من أمراء بلاد المسامين من ينافسه سوى صاحبها . حاصرها فامتنعت عليه فغادرها بعد شهر من

حصارها، وولى وجهه نحو سنجار فاستولى عليها في ٢ رمضان سنة ٥٧٨ هـ (٣٠ ديسمبر سنة ١١٨٢) وأرسل حاكمها وحاشيته إلى الموصل بكل حفاوة وإكرام

في خلال هذا وصلته أخبار من دمشق بتجمع الأفرنج ومحاولتهم غزو جهاتها، فلم يعبأ بهذا النبأ وقال «دعوهم يعملون ما يشاؤون، فأنهم إنما يستولون على قرى وكفور، في حين أننا نأخذ مدناً وبلاداً، فأذا ما عدنا إليهم جئنا لهم بجنود لا قبل لهم بها، فنخرجهم مما ملكوا أذلة وهم صاغرون»

هذه العبارة وحدها كافية لإدراك سياسة السلطان صلاح الدين باهتمامه في التدخل في شؤون الأمراء المسلمين، لاعتقاده أنه إذا تغلب عليهم، وضمهم إلى صفوفه، استطاع أن يخوض بهم غمار الحرب الدينية لاسترداد القدس وغيرها من البلاد التي ملكها الأفرنج، وهي تلك الأمنية التي تطاول إليها منذ زمن بعيد، وهي التي في الحقيقة ساعدت على إعلاء كلمته وجمع قلوب المسلمين حوله، وتآلفهم وتعاضدهم معه على قتال هؤلاء المغيرين الذين لم يراعوا في السكان إلا ولا ذمة، ولم يحفظوا العهود، ولم يراعوا الموائيق، ولم يخافوا الله في سفك دماء المسلمين، مما لم يغفل كتاب الأفرنج أنفسهم أمره والآخر به

ترك السلطان سنجار بعد أن أقام فيها الحرس اللازم لحفظها، ثم سار إلى حصن آمد وملكه بعد حصار ثمانية أيام، وكانت آمد هذه من المدن الشهيرة بسورها القوي، وأبوابها الحديدية، ومكتبتها الجامعة، وفي أثناء

ترتيب أمورها وتسليمها إلى صاحب حصن كيفا علم أن عماد الدين صاحب حلب قد انضم إلى الأفرنج وبدأ يعمل معهم في إحراق المدن التابعة له ، فعبر الفرات واستولى في طريقه على عينتاب ، وفي يوم ١٦ محرم سنة ٥٧٩ (٢١ مايو سنة ١١٨٣) عسكر مرة أخرى أمام حلب التي لم يكن بها عماد الدين على الحالة التي كان بها في سنجار ، وأحب أن يرجع إلى سنجار ، فلم يبد مقاومة تذكر ، وكان السلطان يريد حلب لأنها عاصمة سوريا الشمالية . اتفق الفريقان على استبدال الواحدة بالأخرى مع ضم كل ماحول سنجار من المدن مثل نصيبين والخابور والرقعة وسروج إليها ، وشرط السلطان على عماد الدين المذكور - كما يقول صاحب حماء - الخضوع لخدمته بنفسه وعسكره إذا استدعاه ، فتم ذلك ودخل صلاح الدين حلب يوم ١٧ صفر سنة ٥٧٩ (١٩ يونيو سنة ١١٨٣) بين فرح الأهالي وسرورهم ، وحق لهم ذلك فما صلاح الدين إلا سلطانهم ، ولم يكن في الناس مثله ملكا قويا عادلا كريما . احتفل القوم بتملكه المدينة إحتفالا كبيرا ، وأخذ الشعراء والخطباء ينشدون ويخطبون ، والسلطان لا يقل فرحه بها عن فرحهم به ، لولا ما بلغه من خبر وفاة أخيه تاج الملوك بوري وهو على حصار حلب ، إلا أن السلطان أسر الخبر في نفسه ولم يبد الأهل حتى لا يفسد عليهم مسرتهم ، ومن عجيب ما وقع أن محبي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة جاء فيها

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب
وقد اتفق أن فتح القدس في رجب ولو أنه لم يقع إلا بعد أربع

سنوات من هذا التاريخ

أصبح السلطان بامتلاكه حلباً سيد أسراء المسامين وأقواهم وأعظمهم شأنًا وأعلام كعباً ، فقد كان ساطعانه ينشر أجنحته على تلك الجهات من الرملة إلى حوض النيل ، ويمتد ظله فيعم سواحل إفريقيا الشمالية حتى طرابلس ، وخضعت له بلاد اليمن وعدن ، وخُطب له على المنابر في هذه الجهات كلها

أصبح السلطان الآن سيد القوم وصاحب البلاد كلها خلا الموصل وهو يعلم مقدار جبن صاحبها ، وما كان ليؤذى السلطان في ملكه ويوقف عثرة في سبيله سوى تلك الجهات الساحلية وبيت المقدس إذ كانت لا تزال في أيدي أعدائه الأفرنج ، فما كان ليرتاح ضميره ويطمئن خاطرهم إلا إذا قضى على آمال هؤلاء القوم ، فيقص من جناحهم ويأخذ من بلادهم ما يتركهم أمامه كمية مهملة ، وليس عنده ما يهتم به فيذكره صباح مساء سوى القدس واسترجاعها ، وإليك ما قاله ابن شداد «فانظر إلى هذه المهمة التي لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب ولا الظفر بها بل كان غرضه الاستعانة بالبلاد على الجهاد»

ظل السلطان في حلب ينظم أمورها ويرتب أحوالها حتى فارقها إلى دمشق يوم ٢ جمادى الأولى سنة ٥٧٩ (١٤ أغسطس سنة ١١٨٣) وقد تشجع الأفرنج أثناء غييبته في جهات الشمال لاسيما وقدمات نائبه فروخشاه ، وقاموا بأحراق عدة بلاد على مقربة من دمشق ، وغزا أمير الكرك البلاد العربية وكاد يدخل المدينة المنورة لولا يقظة الأمير لؤلؤ إذ أدركه وشتت شمله وأسر رجاله وبعث ببعضهم إلى المدينة وبالأخرين إلى مصر ، وكاد أمير

الكرك نفسه يقع في الأسر ؛ فكان من واجب السلطان أن يعاقب هؤلاء ، لا سيما وقد أصبح آمناً من جهة الشمال ، فعبر نهر الأردن وأغار على بيسان فأحرقها واستمر حتى تقابل مع جيوش الأفرنج في جهات الفولا ، وكان عدد الأفرنج كبيراً جداً ، على أن هؤلاء تحاشوا خوض معركة معه ، لا سيما وقد أخذ قوادهم يتنافسون حتى دخل عليهم الشتاء ، وانتهى الأمر بأن انسحبوا متراجعين إلى صفورية يحوطهم الخزي والحجل

سار السلطان بعد ذلك إلى حصار الكرك التي كانت عقبة في طريقه بين مصر والشام . هاجمها ولكن من غير جدوى ، ثم أعاد عليها الكرة بعد سنة من أوبته من حلب (جمادى الأولى سنة ٥٨٠ — أغسطس سنة ١١٨٤) ولكن من غير نتيجة كذلك

اجتمعت كلمة الأفرنج جميعاً على مهادنة السلطان ، فعقدوا معه صلحاً لمدة أربع سنوات ، فولى السلطان وجهه نحو تنظيم أحوال ملكه ، فذهب تَوّاً إلى دمشق عاصمة بلاده ، وسيدة جهاته ، وعروس الشرق ، وجنة الشام كلها

في هذا الأوان سعى أمير الموصل ، بموافقة الخليفة العباسي ، في الصالح مع السلطان صلاح الدين ، وأرسل في ذلك مندوباً هو بهاء الدين ابن شهاب الذي أحبه السلطان حباً شديداً ، وصل بهاء الدين وشيخ الشيوخ صدر الدين إلى دمشق في شوال سنة ٥٧٩ (فبراير سنة ١١٨٤) فعرض السلطان صلاح الدين على القاضي بهاء الدين مكاناً رفيعاً في ملكه بمصر ، فأبى ما دام مندوباً عن صاحب الموصل ، أقام في دمشق أياماً لفصل الحال ،

فلم يوفقا إليه ، فعاد يوم الخميس ٧ ذى الحجة سنة ٥٧٩ (٢٢ مارس سنة ١١٨٤) وحاول صاحب الموصل إقناع السلطان فلم يفلح ؛ فعبر السلطان نهر الفرات في المحرم سنة ٥٨١ وسار حتى وصل الموصل وحاصرها ، فأرسل صاحبها والدته وابنة عمه نور الدين محمود وغيرهما من النساء يطلبن من السلطان الصالح ، فأبى عليهن وردهن - كما يقول صاحب كتاب حماء - واستقبح الناس ذلك من السلطان لا سيما وفيهن بنت نور الدين

على أن السلطان قفل راجعاً عن حصارها حين بلغه الخلاف الذي وقع في جهات أرمينية ، فرحل اليها واستولى في طريقه على ميّافارقين في أواخر ربيع الآخر سنة ٥٨١ (أغسطس سنة ١١٨٥) ثم عاد إلى الموصل إلا أنه مرض واضطر إلى الانسحاب إلى حران ، واتفق أن صاحب الموصل ، كان قد حرر شروطاً أخرى للصلح وأرسل بها إلى السلطان ، فأدركه الرسول وهو في طريقه إلى حران ، وكانت تقضى هذه الشروط بأن يخطب للسلطان على منابر الموصل وأن تسلم عدة بلاد إليه وأن يضرب السكة باسمه

وصل السلطان حران وفيها اشتد عليه المرض ، فأصبح بين اليأس والرجاء ، وتأكد بعض القوم أن السلطان لا بد ملاق جتفه في هذه المرة ، فجمع قواده واستحلفهم على الطاعة لأولاده ، غير أنه ما لبث أن تماثل إلى الشفاء في أواخر القعدة سنة ٥٨١ (فبراير سنة ١١٨٥) وهو الآن الذي وصات فيه رسل صاحب الموصل وعلى رأسهم القاضي بهاء الدين بن شداد لتوقيع شروط الصالح . أصبح السلطان صلاح الدين بمقتضى هذا الصالح سيده

جبهات الجزيرة الشمالية وجزء من بلاد الكرديستان . قام السلطان بعد ذلك من حران واستراح قليلا في حمص وفيها قُتل ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه صاحبها ، وكان قد كاتب أمراء دمشق على الطاعة له إذا مات السلطان ، فاستخاف السلطان ولد ناصر الدين هذا واسمه شيركوه ، وكان شابا صغيرا ، فلما مثل بين يديه سأله عن مقدار ما يعرف من كتاب الله ، فقال على الفؤاد : إلى حد قوله تعالى « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » فغضب السلطان وأقره مكان أبيه ، ثم سار حتى وصل حلب ومنها في المحرم سنة ٥٨٢ (أبريل سنة ١١٨٨) سار إلى دمشق فقبول فيها بكل ابتهاج وسرور

إلى هنا ينتهي بنا المقال على الدور الثاني من حياة السلطان صلاح الدين ، وهو الذي قام فيه بجمع كلمة المسلمين وضمهم تحت لوائه وأخذهم إلى ناحية ، ليستعين بهم على جهاده العظيم وحربه القادرة مع الأفرنج الذين احتلوا البلاد ومزقوا وحدة المسلمين فيها ونهبوا وسلبوا كل ما كان لهم ، ومسحوا ما ترك العرب فيها من آثار العمران ، بعد أن أخذوا ما تركه المسلمون الأولون في مساجدهم من الخلفات القيمة الدالة على ما كان لهم من مجد وعلم وحضارة

